مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [1]

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يا محمدُ ﴿ ٱلْخُلْدَ ﴾ في الدنيا، بل ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [2]، ﴿ أَفَإِين مِّتَّ ﴾ يا محمدُ ﴿ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ أي: يُؤمِّلون أن يعيشوا بعدك. لا يكون هذا، بل كُلٌّ إلى الفناء. ولهذا قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وقوله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أي: نختبركم بالمصائب تارةً، وبالنِّعَمِ تارةً أُخرى، فننظُرَ مَن يشكر ومَن يكفُر، ومَن يصبر ومَن يقنط ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ يقول: نبتَليكم بالشر، والخير فتنة بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهُدَى والضلال. وقوله: ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي: فنُجازيكم بأعمالكم.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمامُ ابنُ كثيرٍ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن

---

(١) الأنبياء: ٣٤، ٣٥.

(٢) الرحمن: ٢٦.

قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ذاكَ هو الحق الذي يجبُ على كُلِّ إنسانٍ أن يقفَ عنده، وأن يُحسن تدبره. فكُلُّ مَن وُلِدَ سيموت، والذي لم يلد ولم يُولَد هو الحيُّ الذي لا يموت، ولن يُعفَى من الموتِ كبيرٌ أو صغيرٌ، غنيٌّ أو فقيرٌ. لن يُعْفَى من الموت نبيٌّ أو رسولٌ، فالكُلُّ قد كُتِبَ عليه الفناء.

وهذه الحقيقة قد يغفل عنها الذين يجحدون الحقَّ، ويكيدون لأهله، ويصُدُّون عن سبيل الله. ومَن أفرط في الضلالة، أو تمكَّنت منه الجهالة، ظَنَّ أن الحقَّ - الذي جاءت به الرسلُ - يمكن أن يُدْحَض، وأن نورَ الله يمكن أن يُطفَأ، فيتمنى هؤلاء موتَ الرسول وهم لا يعلمون أن الحقَّ الذي جاء به من عند الله باقٍ لا يذهب، والله حيٌّ لا يموت. وما صرَّفه الله في القرآن من وعيدٍ واقعٌ ما لَهُ من دافع. والرسولُ بين قومه أمْنٌ لهم. فالكيد له من الجاحدين كيد لأنفسهم، والمكرُ به لا يحيقُ إلاَّ بهم ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾ (١)، ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

هذا الذكر الذي يضيق به صدرُ الجاحدين لا يمكن التخلُّص منه بموت النبي أو

(١) فاطر: من الآية ٤٣.
(٢) الزخرف: ٤١- ٤٤.

قتله؛ فإنه محفوظٌ بحفظ الله، ومَن حفظه الله لا يمكن أن يُضيَّع. وجحود الحقِّ وَبَالٌ وخُسران، وحسابُ الجاحدين على الله لا على غيره. فإن لم يُؤخَذوا بالعذاب في دُنياهم، أُحيط بهم في أُخراهم ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾ (١)

ولن يُعفَى من الموت أحدٌ من الخَلق، فإذا مات الرسول فلن يخلُدَ غيرُه ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ﴾ (٢)، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ والإخبارُ بذلك له دلالته في مخاطبة الإنسان وتبصرته بغاية خَلقه وحِكمة وجوده.

يُخاطَبُ بأصول ثابتة، وآيات قاطعة؛ حتى لا يَتيه في شئون الحياة؛ فإن شئون الحياة متجددةٌ متغيرةٌ، ولكن بأصول ومقومات ثابتة نراها في ماديات الحياة ومعنوياتها، فَمَن غمرته بزينتها ومتاعِها لا ينسى حقيقة الموت وأنه واقعٌ لا محالةَ، حتى لا يُلهَى بالزينة عن القيمة، أو يُشغَل بالرغائب عن العواقب.

ومن فُتِنَ بخيرٍ أو شرٍ فليذكر الرجوعَ إلى ربِّه، ولن يكون معه إلا ما أجابت به نفسُه من شُكرٍ أو صبر. وأمَّا مَا امتُحِنَ به فمَوْقوتٌ بالإجابة عنه، فالصحةُ والمرضُ، والعُسر واليُسر، والشدةُ والرخاء، أعراضٌ في دُنيانا يُجاب عنها ثم تذهب.

ومَن عرف ذلك وأيقن به رَبِحَ في الحالين: في العُسر واليُسر، والشدة والرخاء « إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (٣)

---

(١) الغاشية: ٢٥، ٢٦.

(٢) الزمر: ٣٠.

(٣) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٥٣١٨.

ومَن جَهِلَ ذلك، وغاب عنه أنه مُمْتَحَنٌ، دمَّره اليُسرُ، كما يُدمِّره العُسرُ، وعاش دُنياه مُتَبَرِّماً ساخطاً، أو بَطِراً متكبراً ! فدُمِّرَ في الحالين، وخَسِرَ الدارين، وذلك هو الخسران المبين.

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ فلا يُنسِينا لَهْوُ الحياةِ الدنيا حقيقةَ أنفسنا وما نحنُ صائرون إليه. ولْنَسْتَبْصِر - دائماً - بهداية القرآن؛ لتحقيق التوازن بين الرغائب والعواقب؛ حتى لا نُؤْثِرَ رغبةً عاجلةً على قيمةٍ باقية.

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها، وإن تُردُّ إلى قليلٍ تقنع.

ذاك ما يستوجبه الامتحانُ، وما تفرضه الإجابة الصحيحة عمَّا نُمْتَحَنُ به. فإن مَن شُغِلَ بنعمةٍ سيقت إليه عن شُكرها ووضْعِها في موضعها، قد تصير النعمةُ نِقمةً عليه، بما تؤول إليه من حسابٍ وجزاءٍ، وقد يحمل يوم القيامة وِزْرَهَا.

ولا شكَّ أن القرآن الكريم - وهو يُبَصِّرُ ويُذكِّر ويهدي في كُلِّ شأنٍ للتي هي أقوم - لا بُدَّ أن يُتَّبَع، وأن تُتَّقى مُخالفته؛ فإن الرحمةَ التي تُرْجَى منوطةٌ باتباعه واتِّقاء مخالفته ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (١)

واتِّباع القرآن الكريم يقتضي التأسي برسول الله ﷺ - وقد كان خُلُقه القرآن - طلباً للهداية والرحمة.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ

(١) الأنعام: ١٥٥.

بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١)

بهذا تستطيعُ أن تجيبَ - إجابةً صحيحةً - عمَّا تُمْتَحَنُ به من يُسرٍ وعُسرٍ، وشدَّةٍ ورخاءٍ، وأن توازنَ بين ما تطلبه العاجلةُ وما تنشده الآخرةُ دون رهبانية تعزلنا عن دُنيانا، ودون اطمئنان بالحياة الدنيا يجعلنا نركنُ إليها وننسى أُخرانا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) يونس: ٧- ١٠